

تحليل النفس التشخيص والعلاج عند الغزالي (دراسة تحليلية مقارنة)

Psychoanalysis diagnosis and treatment by Al-Ghazali:

(An analytic comparative study)

أ.د. ميلود حميدات¹، خديجة بن السايح²¹ جامعة الأغواط (الجزائر)، hfarouk18@hotmail.fr² جامعة الأغواط (الجزائر)، bensayahk@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2020/02/08

تاريخ القبول: 2019/06/15

تاريخ الاستلام: 2019/06/13

ملخص:

نتناول التحليل النفسي عند الشيخ أبو حامد الغزالي. الذي تميزت نظرت² إلى النفس عن فلاسفة اليونان، ومن تبعهم من فلاسفة الإسلام. إذ يبرز التميز في أن² يستمد أسس فلسفت² النفسية من الإسلام، ومن تجربت² الذاتية في التصوف، مع العلم أن التصوف ذو علاقة وطيدة بعلم النفس، و(الغزالي) من ناحية أخرى باحث في النفس ومتصوف، وفي التصوف مادة نفسية غزيرة، تستوقف كل باحث، لقد كان لتلك التجربة النفسية أعمق الأثر في إبداع الغزالي في علم النفس، كإدراك الدوافع والانفعالات، ومعرفة العواطف والانحرافات، وبالتالي تشخيص الحالات، ووصف العلاجات. ويبدو لنا في هذا القليل من الكثير أننا أثبتنا أصالة وتميز التحليل النفسي الذي قدّم² الغزالي، وسبّقت² لكثير من المدارس الحديثة في طرّقت موضوعات النفس وأحوالها، وأمراضها. ملتزمين بالنصوص الثابتة للغزالي، لإثبات ما ذهبنا إليه² بكل دقة وموضوعية.

كلمات مفتاحية: تحليل النفس، علل النفس، التشخيص، العلاج، الغزالي.

Abstract:

We will present the analysis of the psychological activity according to Al – Ghazali, in addition to the division of the psyche, the influence of the instincts, the control of emotions, and the functions of dreams, reaching to the psychiatric disorders and their causes and treatment, we did that in the context of comparison with the modern schools of psychology with elaboration of Al – Ghazali approach in the analysis, which seems to have similarities with modern schools of psychology. We have used the original writings of Al – Ghazali with objectivity and precision.

المؤلف المرسل: ميلود حميدات، الإيميل: hfarouk18@hotmail.fr

Keywords: Psychological analysis, diseases, diagnosis, treatment, AL-Ghazali.

مقدمة:

يعتبر أبو حامد الغزالي (1056، 1111م) من أبرز مفكري الإسلام الذين أولوا أهمية بالغة للنفس البشرية، من جميع جوانبها. حيث وقف على الكثير من الآليات التي تحكمها، كما شخّص العديد من عللها وأمراضها، واجتهد في وصف علاجاتها. كما يمكن الوقوف على آراء كثيرة سبق (الغزالي) من خلالها المدارس النفسية المعاصرة، لعلّ من أبرزها ما جاءت به مدرسة التحليل النفسي، بزعامة مؤسسها (سيغموند فرويد (Sugmund Freud)(1856، 1939م).

ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أن للغزالي ملاماً نظرية في تحليل النفس، تستمد أصولها من الإسلام، وسنتطرق إلى أهم معالم هذه النظرية في نظرة الغزالي إلى النفس وأقسامها، وإلى الغريزة والانفعالات، وتأثيرهما على النشاط النفسي، ومفهوم الأحلام، وأمراض النفس وأسبابها ثم كيفية علاجها، ومنها تكتمل الصورة لدينا لما قدمه الغزالي من آراء سبق بها عصره. وهذا ما نحاول تسليط بعض الضوء عليه في مقالنا هذا.

1. أقسام النفس عند الغزالي:

يتكلم الغزالي عن النفس في ثلاث صور مختلفة تشبّه إلى حد كبير التقسيم الثلاثي للأنا الذي قال به (سيغموند فرويد) الذي يحدد الجهاز النفسي كالآتي: الأنا: ويمثل الشخصية الواقعية المهذبة اجتماعياً، والتي تسعى إلى التوافق والتكيف.

الهو: الرغبات والغرائز الداخلية اللاشعورية التي تسعى إلى اللذة والإشباع.

الأنا الأعلى: ويمثل أوامر ونواهي المجتمع الأخلاقية، أو جانب الضمير في الشخصية.1

أما (الغزالي) فقد قسّم النفس إلى ثلاثة أقسام قبل (فرويد) بقرون، وإن كان التشابّه موجود بين طبيعة كل قسم عندهما.

إذ يجعل (الغزالي) من النفس: « إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة... وإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية، ومعتزلة عليها سميت النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره.. وإن تركت الاعتراض وأذعنت، وأطاعت لمقتضى الشهوات، ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء.» 2

وعليه تكون أمّام ثلاثة أحوال للنفس:

1. النفس الشهوانية: سيطرة الأهواء، والغرائز والشهوات على العقل.
2. النفس اللوامة: النفس المتوسطة بين صراع الأضداد، الشهوة والعقل.
3. النفس الموقلة: النفس المطمئنة بحكم العقل، وقمع الشهوات والتحكم فيها.

فاختلاف أسمائها باختلاف أحوالها العارضة عليها، « فإن اتجهت إلى صواب الصواب ونزلت عليها السكينات الإلهية..فتطمئن إلى ذكر الله عزّ وجلّ وتسكن إلى المعارف الإلهية ..فيقال نفس مطمئنة. وإن كانت مع قواها وجنودها في قتال وشجار ونزاع وكانت الحرب بينهما سجّال، فتارة لها اليد عليها وتارة للقوى عليها اليد فلا تكون حالها مستقيمة.. فهذه النفس نفس لؤامة وهذه النفس هي حالة أكثر الخلق. ومن إتضع حتى صار في حضيض الهائم..لانسلاخ² عن الفضائل الإنسانية وعدم مشاركت² للإنسان إلا بالصورة التخطيطية، وهذه النفس الأمانة بالسوء.»³

والغزالي كما هو واضح يستمد تقسيم² الثلاثي من القرآن الكريم، لقول² تعالى: ﴿ يا أيها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية.﴾⁴ وقول²: ﴿ لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللؤامة.﴾⁵ وقول² أيضا: ﴿ إن النفس لأمانة بالسوء.﴾⁶

ويستمد (الغزالي) ذلك في قول²: « نفسك خلقت أمانة بالسوء...وأمرت بتزكيتها...فإن أهملتها جمحت وشردت، وإن لازمها بالتوبخ والمعاتبة كانت نفسك هي النفس اللؤامة، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.»⁷

ويبدو من النصوص السابقة أن(الغزالي) يدرك جيدا خصائص النفس، إذ يجعل من الإنسان في مرتبة وسطى بين طرفي نقيض الحيوانية من جهة بما تحمل² هذه الكلمة من غرائزية وتعلق بمطالب الجسد، والملائكية من جهة بما تحمل² من تعالي عن مطالب الجسد والغرائز.

ولكن الإنسان في نفس الوقت يحمل في ذات² تلك الثنائية بين مطالب الجسد وتمثلها الغريزة ومطالب الروح ويمثلها العقل، وبالتالي فهو في صراع بين هذين الطرفين، بين الطبيعة الإنسانية، والطبيعة الحيوانية، إذ يسمي الغزالي: « الصفة التي بها فارق الإنسان الهائم في قمع الشهوات وقهرها، باعثا دينيا، ولنسم مطالبه الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى، وليُفهم أن القتال قائم بين باعث الدين و باعث الهوى، والحرب بينهما سجّال.»⁸

وعلي² جعل الغزالي أغلب الناس في حالة النفس اللؤامة، معتبرا أن أساس الامتحان هو السعي بهذه النفس نحو العقل وفضائل² للوصول إلى درجة النفس المطمئنة التي تُنال بالرياضة والمجاهدة، وعدم السقوط في مطالب الغرائز والرغبات حتى لا تصير هذه النفس عبدا للردائل، وإنما أن تحقق النفس توازنها وسيادتها وتحريها من كل ما يستعبدها. كما لا يعني ذلك عند الغزالي أن تقمع النفس، وتُحرم كل ما تنزع إلي² بطبيعتها من شهوات وغرائز، وإنما أن لا تكون الغرائز هي كل غايتها، وإنما ما يحقق توازنها.

ولا يرى الغزالي في توازن النفس سوى التوفيق بين مطالب النفس، وتحقيق الاعتدال، ولا يكون ذلك في قمع الشهوات والرغبات والقضاء عليها، فإن ذلك مناف للطبيعة البشرية، وإنما بالتهذيب والتربية، والمجاهدة، ويخطئ من يعتقد «أن المقصود بالمجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيماتها! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلية، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لأنقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ٢ ما يهلك ٢ ولهلك.. وليس المطلوب إمالة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط.» 9

وتبرز نظرة الغزالي الواقعية المعتدلة المبنية على الملاحظة والتجربة جلية في هذا التحليل، الذي يدل أيضا على فهم الغزالي الجيد لأغوار النفس البشرية، ودعوت ٢ إلى اعتماد الممارسة والمجاهدة، لإعادة النفس إلى الوسط المحمود، وقول ٢ «أبلغ في ذلك:» وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال، فدلّ أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها.» 10

الغريزة والنشاط النفسي عند الغزالي:

إذا كان (سيغموند فرويد) يرجع أساس النشاط النفسي إلى اللاشعور وغريزة الجنس، فإن (الغزالي) يرجع النشاط النفسي إلى أربعة دوافع أساسية وهي: الرغبة أو الشهوة إلى الطعام، والجنس، والمال، والجاه. ومحرك كل هذه الدوافع، غريزة البطن التي يجعلها الأصل في بروز الغرائز الأخرى، «والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الأدوية والأفات، إذ يتبعها شهوة المرأة، وشدة الشبق، ثم تتبع شهوة الطعام والمرأة شدة الرغبة في الجاه والمال، اللذين هما وسيلة إلى التوسع في الشهوة الجنسية والمطعومات.» 11

وتترتب عن التوسع في طلب اللذات، والسعي في إرضاء الغرائز، بجمع المال والجاه، «أنواع الرعونات، وضروب المنافسات، والمحاسدات، ثم يتولد بينهما آفة الرياء، وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد، والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحب ٢ إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة، وما يتولد عنها من بطن الشبع، والامتلاء. ولو ذلّ العبد نفسه ٢ بالجوع، وضيق ٢ مجاري الشيطان، لأذعنن لطاعة الله عز وجلّ.

12«

إن التحكم في الغرائز، والاعتدال في تلبيتها هو وسيلة الصحة النفسية، والتحكم في النفس بالعقل والوعي، أما إذا حدث العكس فهو فقدان للإرادة، وسيطرة الأهواء على النفس و«من استولت عليه ٢ النفس صار أسيرا في حب شهواتها، محصورا في سجن هواها، مقهورا مغلولاً زمام ٢ في يدها، تجره حيث شاءت، فتمنع قلب ٢ من الفوائد.» 13

وهنا إشارة لا تقل أهمية عما سبق ذكره في التحليل النفسي، إذ يشير الغزالي إلا غياب الوعي والإرادة لدى مريض النفس، وكأنه يتصرف من غير شعور، وهي طبعا الفكرة التي بنا عليها التحليل النفسي أساس المرض النفسي، وهي عدم شعور المريض بأسباب حالته، ومعرفة الأسباب، والوعي بها يؤدي إلى العلاج، وسنجد ذلك في العلاج بالعلم والعمل الذي يتكلم عن الغزالي فيما بعد.

أ) غريزة الطعام والتحكم فيها:

يعتبر (الغزالي) هذه الغريزة أساس لكل الغرائز الأخرى، «فإن المعدة منبع القوى، فكانت الباب والمفتاح إلى الخير والشر جميعا، ولذا عظم في الشرع أمر الصوم»¹⁴ فإن معالجتها تؤدي إلى معالجة الغرائز الأخرى، وردها إلى حد الاعتدال.

وعليه يعتبر العلاج في معاكستها، فيبرز لنا فوائد الجوع (قلة الطعام) متمثلة في: «صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب.. بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك»¹⁵ كما «يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل.. ويحوج إلى الفصد والحجامة، والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها»¹⁶

وبعد هذه الحجج التي يسوقها الغزالي للتدليل على أفضلية قلة الأكل، للجسم والعقل والمال، يتكلم الغزالي بأسلوب نفسي اجتماعي عن تأثير الشبع على الإنسان، إذ يدفع الشبع إلى البحث عن أشياء أخرى، فيعمل على إشباع غرائز أخرى.

ومننا تنشأ الغرائز كتوابع لغريزة البطن، فيتحرر اللسان بعد الشبع، فيتكلم في الناس، ويتطلع الفرد إلى تحقيق رغباته المختلفة. إذ يقول الغزالي في أسلوب مبني على الملاحظة والخبرة بالنفس البشرية وتطلعاتها: «وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفك لا محالة بأعراض الناس... وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعت التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني، كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف، فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس، بأسباب الشهوة، وما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة، وإنما ذكرنا آفة اللسان، والفرج مثلا، وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة*، سببها القوة الحاصلة بالشبع»¹⁷

لا يكتفي الغزالي بعرض المشاكل الناتجة عن كثرة الأكل، وعدم الاعتدال في الطعام، وإنما يقدم بعد ذلك العلاج والحلول التي يراها مناسبة، فيؤكد أولا أن «البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء، وعودوا كل جسم ما اعتاد»¹⁸

وهو كلام صحيح ٢٠ بالمقاييس العلمية الحديثة، فكثير من الأمراض ناتجة عن طبيعة الغذاء الذي يتناوله ٢١ الإنسان، بل أساس كثير من الأمراض الخطيرة والمزمنة هو الإفراط في الأكل، وبالتالي زيادة الوزن، الذي أصب ٢٢ في حد ذاته مرضا خطيرا، لأن ٢٣ أرضية لأمراض أخرى، كالسكري، وارتفاع ضغط الدم، والقرحة، وأحيانا السرطان الناتج في كثير من الأحيان عن الإختلالات الهرمونية والغذائية.

ثم يضيف الغزالي إلى طريقتي ٢٤ في العلاج، ضرورة التزام الوقاية، من خلال الاعتدال في الطعام، لأن « الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة، ولا يحس بألم الجوع... فإن مقصود الأكل بقاء الحياة، وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها.. وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع، فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال.» ١٩

ويؤكد الغزالي على الوقاية من الأول، وتعويد الجسم والنفس الاعتدال في كل شيء منذ البداية، « فليكن الاحتياط في بدايات الأمور، فأما في أواخرها، فلا تقبل العلاج، إلا بجهد جهيد يؤدي إلى نزع الروح.» ٢٥

أما من تعود كثرة الأكل، فما عليه ٢٦ إلا أن يعود إلى الحمية، وتنظيم نفس ٢٧، ولا يكون ذلك حسب الغزالي إلا بالتدرج والمثابرة، والرياضة، حتى لا يضر جسم ٢٨ من جهة، وينجح في ذلك من جهة أخرى، ولذلك يقترح الغزالي: « في تقليل الطعام فسبيل الرياضة في ٢٩ التدرج، فمن اعتاد الأكل الكثير، وانتقل دفعة واحدة إلى القليل، لم يحتمل ٣٠ مزاج ٣١، وضعف وعظمت مشقتي ٣٢، فينبغي أن يتدرج إلي ٣٣ قليلا قليلا، وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعام ٣٤ المعتاد.» ٢١

والنتيجة التي يوصلنا إليها هي أن نجعل من الغذاء وسيلة لحفظ الصحة، وليس غاية في حد ذاته ٣٥، وبالتالي نفهم منها أنها دعوة إلى التربية الجسدية، والاستهلاكية، إذ تحمي الإنسان من الإفراط في الأكل، ومن التفريط في صحة النفس والبدن، إذ « أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله.» ٢٢

ب (غريزة الجنس وتهذيبها:

يعتبر الغزالي هذا الدافع طبيعيا في الإنسان، وقد وُجد لسببين في اعتقاده أولهما: أنها لذة محسوسة يمكن قياس عليها لذة غير محسوسة هي لذات الآخرة، لأنها من أعظم الشهوات.

وثانيهما: أنها مقصودة لبقاء النسل، وحفظ بقاء النوع الإنساني واستمرار الوجود. ٢٣

وعلاجها عند الغزالي أن يتزوج الشباب، فإن لم يقدرُوا على الزواج، فليستعينوا بالصوم والعبادة لشغل النفس عن التفكير فيها. كما يدعو إلى الاعتدال في تحقيق هذه الغريزة، « فإذا

إفراط الشهوة أن يُغلب العقل.. مذموم جدا، وتفريطها بالعنة أو الضعف.. هو أيضا مذموم، وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطبعة للعقل والشرع.. ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح.» 24
ويحذر الغزالي من الطرفين، الإفراط والتفريط، إذ أن الإفراط في هذه الغريزة قد يكون سببا في انصراف القلب عن العبادة، وانشغال الرجل بالنساء، وقد يكون ذلك سببا في ترك الدين، وارتكاب الفواحش. لأن سيطرة هذه الغريزة على النفس قد يدفع البعض إلى المبالغة في إشباعها بكل الطرق، على حساب النفس والصحة والآخرين.

كما يؤكد الغزالي على أن الإفراط ينتهي بالبعض إلى أمرين شنيعين وهما:
أولاً: « أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الاستكثار من الوقاع، كما قد يتناول بعض الناس أدوية تُقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام.» 25

ثانياً: « قد تنتهي.. ببعض إلى العشق.. لشخص واحد معين حتى يزداد بـ [2] ذلا على ذل، وعبودية على عبودية، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة. وقد خُلِق ليكون مطاعا لا ليكون خادما للشهوة.. وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة، وهو مرض قلب فارغ لا همّ لـ [2]» 26
كما يعتبر (الغزالي) التفريط مرضا وضعفا مذموما، بحيث لا تؤدي هذه الغريزة وظيفتها في حفظ النسل، وتحقيق الشهوة والإمتاع للطرفين، وهو إخلال بحق طبيعي.

ولكن [2] يحذر من سيطرة الشهوة، حتى تصير عصبية عن التغيير، أي حالات الإدمان التي هي حالات مرضية، يصعب علاجها، إذ يحذر الغزالي من حالات الإدمان: وهي سيطرة الشهوات على نفس الإنسان، بحيث لا يستطيع التحكم فيها، بل يعتبرها الغزالي حالة مرضية للنفس التي تتعود على فعل، ثم لا تقدر على التخلص منها [2]، إذ يقول: «.. وإنما يجب الاحتراز من أوائل [2]. وإلا فإذا استحكمت عُسْر دفع [2]؛ فكذاك عشق المال، والجاه، والعقار، والأولاد، حتى حب اللعب بالطيور، والنرد، والشطرنج. فإن هذه الأمور تستولي على طائفة، بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا، ولا يصبروا عنها البتة.» 27

ويقدم الغزالي تشبيها بليغا عن إدمان النفس شيئا وكيفية علاجها، وصعوبة ذلك قبل تحكّم عادة الإدمان، وبعدها، حيث يشب [2] ذلك بدابة تريد دخول باب دار، إذ يمكن صرفها بسهولة قبل ولوجها باب الدار، ويصعب ذلك إن تمكنت من دخول الدار، إذ يحتاج الأمر إلى جهد ووقت لإخراجها، والفرق واضح بين الحالين. 28

ولا يخفى المعنى الذي يريده الغزالي من ذلك، فالنفس صافية حرة، وهي سيّدة على ذاتها قبل تحكّم الأهواء فيها، فإن سيطر عليها هوًّا وأدمنت عليها [2]، وصارت الدابة داخل نفس الإنسان،

حينها تفقد النفس صفاءها وحرمتها، ويذهب حكم العقل، ويصير حكم الغريزة، و يصل الأمر إلى مرض النفس.

3. الألام والحدس في تحليل النفس عند الغزالي:

نظرة الغزالي إلى الأحلام وما في الباطن من حقائق قريبة من التحليل النفسي الذي يجعل من اللاشعور، أو النشاط النفسي الباطني منبع حقائق النفس، فإن الغزالي أيضا يرى أن الحقائق تستمد بالحدس من باطن النفس بعد رياضتها وصفائها، وإن اختلف المغزى بين الغزالي والتحليل النفسي، إلا أن هناك تشابهاً في الأفكار، كما يدعو الغزالي إلى تأويل الأحلام، ويعطي لذلك دورا هاما لاكتشاف الحقائق التي تنجلي للنفس، بل يجعل الغزالي من الحلم وسيلة، أو طريق إلى المعرفة، إذ يقول: «اعلم أن للقلب بايين للعلوم: واحد للأحلام، والثاني لعالم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج فإن نام غلق باب الحواس، فيفتق لئلا باب الباطن ويكشف لئلا غيب من باب الملكوت، ومن اللوح المحفوظ، فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشف لئلا شيء من تعبير الأحلام، وأما ما كان من الظاهر فيظن الناس أن بئلا اليقظة أولى بالمعرفة، مع أن لئلا لا يبصر في اليقظة شيء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر من طريق الحواس.» 29

الترميز وتأويل الأحلام والرؤى: لا تنكشف الحقائق في الأحلام بشكل مباشر بل تكون مرمنة خفية، تحتاج إلى فك أسرارها، وتأويل معانيها، إذ أنها «استعارات رسمية، تحتها رموز وإشارات خفية.. إذ كما يستحيل الوصول إلى اللب إلا من طريق القشر، فيستحيل الترقى إلى عالم الأرواح إلا بمثال عالم الأجسام، ولا تعرف هذه الموازنة إلا بمثال، فانظروا إلى ما ينكشف للنائم في نوم لئلا من الرؤيا الصحيحة.» 30

ويفسر الغزالي ذلك بأن الحقائق لا تنكشف للنفس الكشف الصريح لئلا، وإنما بالإشارة والتلميح لئلا، لأن هناك فرق بين عالم الروح وعالم المادة. 31

بل يقدم الغزالي أمثلة من التراث، فمثلا «رأى بعضهم إن لئلا كان في يده خاتم يختم بئلا فروج النساء، وأفواه الرجال، فقال لئلا (ابن سيرين) أنت رجل تؤذن في رمضان قبل الصبح لئلا، فقال: نعم، ورأى آخر أن لئلا يصب الزيت في الزيتون، فقال لئلا إن كان تحتك جارية فهي أمك، قد سُببت وبيعت واشتريتها أنت ولا تعرف، فكان كذلك.» 32

وتبرز هنا نظرة الغزالي في الربط بين الأحلام والحقائق رائدة، وبهمننا في ذلك المنهج والدلالة النفسية التي يعطيها الغزالي لذلك، إذ يحتاج الحلم إلى تأويل لأن لئلا معنى، ويستمد التأويل من مصادر اللغة والثقافة والدين، وهذا ما يقول بئلا التحليل النفسي بعد قرون بعد ذلك، وهذا ما توصل إليه الغزالي بقول لئلا: «فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم، مشاركا للأذان قبل الصبح لئلا في روح

الخاتم، وهو المنع وإن كان مخالفاً في صورته²، وقس على ما ذكرته³ ما لم أذكره، واعلم أن القرآن والأخبار تشتمل على كثير من هذا الجنس.»³³

وقد ذهبت مدارس التحليل النفسي إلى ذلك بقولها: أن لكل حلم معنى، وأن الأحلام تتخفى من خلال رموز، تحتاج إلى تأويل، وأن مصادر التأويل هي ثقافة الفرد وكل ما يستمد من المجتمع والدين من تعبيرات، أو ما يطلق عليه اللاشعور الجمعي.³⁴

4. أمراض النفس:

يتكلم الغزالي عن أمراض النفس التي يطلق عليها أمراض القلب، وذلك لأن⁴ يعطي للنفس والقلب والروح نفس المعنى أحياناً، وتنشأ هذه الأمراض عادة من اختلال التوازن بين أقسام النفس البشرية، وغلبة طرف على الأطراف الأخرى من جهة، وعدم قدرة العقل على التحكم والسيطرة من جهة أخرى، فنصب⁵ أمام حالات من انحراف السلوك، وطاعة الرغبات والشهوات، التي تسيطر على صاحبها، فتسيره.

لقد تكلم (الغزالي) عن أمراض النفس التي لم يتطرق إليها علم النفس، وإن فعل ذلك فلم يحدد تلك الأمراض بالضبط، أو اعتبرها لم تصل إلى درجة الشدة التي تتطلب علاجاً، إلا أن ذلك نعتبه سبقاً علمياً للغزالي في تناول تلك الأمراض ووصف العلاج لها، وإن استفاد الغزالي كما هو واضح من الدين في كشف واستخراج تلك الأمراض، إلا أننا نحسب ل⁶ السابق في قدرته⁷ على تحديدها وضبطها ووصفها وتبيين أسبابها ثم العمل على وصف علاجها، ويتضح هنا منهج دراسة حالة في التعامل مع هذه الأمراض، ولذلك يحسب للغزالي الإبداع في الموضوع وفي اكتشاف المنهج معاً، وللتدليل على ذلك نذكر بعض هذه الأمراض (التكبر، الغرور، الحسد، الكذب، البخل، الرياء، إلخ) كما نمثل ببعض النماذج لتعامل⁸ مع تلك الأمراض لإثبات ما ذكرناه.

أسباب الأمراض النفسية:

لعلّ من المسلم ب⁹ أن الأسباب الأساسية في الأمراض النفسية، أو أمراض القلوب كما يسميها الغزالي هو الصراع بين قوى الخير وقوى الشر، بين العقل والغريزة، بين الرغبة في الإشباع وطلب اللذة، وبين الاستقامة والرضا. وفي نفس الوقت الشعور بالندم والإحساس بالذنب في حالة طاعة مطالب الجسد، وعصيان أوامر العقل، ومن¹⁰ ينتج القلق والتوتر، والغضب والعدوان، والخوف والانتقام، وسرعان ما يضطرب السلوك بظهور تلك الانفعالات، ومع تكرارها تسيطر على النفس وتصب¹¹ عادة تدفع إلى سلوكات أخرى أكثر تأثيراً على النفس.

كما يرجع الغزالي انتشار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان إلى ثلاثة أسباب وهي: (1) لا يدري المريض أن¹² مريض. (2) أن أعراض¹³ وعاقبت¹⁴ غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض البدن

فإن عاقبت^٢ موت مشاهد تنفر الطباع من^٢، وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبت^٢ الذنوب وموت القلب، وهو غير مشاهد. (3) فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا.. وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم. 35

علاج الأمراض النفسية والانحرافات الأخلاقية:

(1) انفعال الغضب وعلاجه:

تحليل النفس وعلاج الرذائل والأمراض النفسية التي يتكلم عنها الغزالي فيها كثير من العمق، والسبق، والمنهج التأملي والإقناع في العلاج النفسي، إذ ينطلق مثلا من تقديم قاعدة العلاج وهي معرفة أسباب المشكل أو المرض، ويتم بعد ذلك مواجهة الأعراض بأضدادها، « قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها، وإزالة أسبابها فلا بد من إزالة هذه الأسباب. » 36

فمثلا بالنسبة للغضب، يقدم الغزالي وصفا دقيقا، لا يقل دقة وتحليلا عما قاله أصحاب المدرسة الفيزيولوجية، في وصفهم للمظاهر الجسمية، كما يوضح في تحليله العلاقة الوثيقة بين الجسد والنفس في حدوث الانفعالات، مبرزا أن الجسد مرآة وصورة لما يحدث في الداخل من تغيرات، إذ يقول في ذلك: « من آثار الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركة حتى يظهر الزبد على الأشداق، وتحمر الأهداق وتنقلب المناخر، وتستحيل الخلقة، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قب^٢ صورته لسكن غضبه حياء من قب^٢ صورته، واستحالة خلقته، وقب^٢ باطنه، أعظم من قب^٢ ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولا، ثم انتشر قبحتها إلى الظاهر ثانيا، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن، فقس الثمرة بالثمرة، فهذا أثره في الجسد. 37» بعد هذا الوصف الدقيق للمظاهر الجسمية، وعلاقة ذلك بما يحدث في النفس، يواصل (الغزالي) تحليل نتائج الإنفعال والأفعال التي تصاحب^٢، وما يمكن أن يصاحب الغضب الشديد من انحراف في السلوك، حيث يقول: « أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام، الذي يستحي من^٢ ذو عقل، ويستحي من^٢ قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم، واضطراب اللفظ. وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهميم، والتمزيق والقتل، والجرح عند التمكن، من غير مبالاة. فإن هرب من^٢ المغضوب عليه بسبب أو عجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه. وقد يضرب بيده على الأرض، ويعدو عدو الوال^٢ السكران، والمدهوش المتحير. وربما يسقط (سريعا)، لا يطيق العدو والنهوض، بسبب شدة الغضب، ويعتريه مثل الغشية. وربما يضرب الجمادات والحيوانات، فيضرب القصعة مثلا على الأرض، وقد يكسر المائدة، إذا غضب عليها. ويتعاطى أفعال المجانين فيشتتم الهيمة والجمادات ويخاطبها. ويقول على متى منك هذا يا كيت وكيت، وكأنه

يخاطب عاقلا، حتى ربما رفست² دابة، فيرفس الدابة، ويقابلها بذلك. وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه² فالحقد، والحسد وإضرار السوء، والشماتة بالمسآت والحزن بالسرور، وهتك الستر والاستهزاء، وغير ذلك من القبائذ²، فهذه ثمرة الغضب المفرط.³⁸

بعد هذا الوصف العلمي الدقيق الذي يبرز لنا ما يمكن أن يؤدي إليه² التطرف في هذا الإنفعال من عدوانية وعنف، وإلحاق الأذى بالذات وبالغير، وغياب للإرادة والعقل، ولذلك يأتي دور الحلول، والعلاج ليتحكم الإنسان في الغضب كأنفعال، وقس على ذلك في كل الانفعالات والعواطف الأخرى، وبداية يرى الغزالي ضرورة أن يسعى الإنسان إلى الوسطية والاعتدال في كل أفعال² النفسية، فمثلا في الغضب «خير الأمور أوساطها فمن مال غضب² إلى الفتور حتى أحس من نفسه² بضعف الغيرة وخسة النفس، في احتمال الذل والضميم في غير محل²، فينبغي أن يعالج نفسه²، حتى يقوى غضب² (قد نفهم من ذلك حتى يحفظ بقاءه، وهيبته² واحترامه²) ومن مال غضب² إلى الإفراط حتى جره إلى التهور، واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه² لينقص من سورة الغضب، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين.»³⁹

أما في حالات اشتداد الغضب فيقدم الغزالي علاجاً لذلك، مذكرا دائما على أن الوقاية خير من العلاج، أي يتوقى الغضب من الأول بتربية النفس من البداية على الاعتدال، والصبر، والحلم، «حتى لا يهيج، فإذا جرى سبب هياج²، فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحب² إلى العمل ب² على الوج² المذموم. وإنما يعالج الغضب عند هيجانه² بمعجون العلم والعمل.»⁴⁰

ولا يخرج هذا عن العلاج المعرفي والعلاج السلوكي كما يعرف حديثا، وسيثبت ذلك بعد التحليل.

أما العلم فهو ستة أمور:

1. أن يتفكر في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم، والاحتمال فيرغب في ثواب².
2. تخويف نفسه² من عقاب الله إذا ظلم غيره، فإن كان أقوى من خصم² فالله أقوى من².
3. الحذر وتخويف النفس من عواقب الغضب عليه² في الدنيا.
4. أن يتفكر في قب² صورته² عند الغضب، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، وتشبيها² الغاضب بالحيوان الضاري.
5. أن يتفكر في السبب الذي يحمل² على الغضب والانتقام.
6. يعلم أن غضب الله عليه² أعظم من غضب²، فيغلب² مراد الله لا مراده.

وأما العمل فهو:

1. التعوذ من الشيطان، والاستغفار من الله، والدعاء.

الجلوس إن كان الشخص واقفاً، والاضطجاع إن كان جالساً.

التوضؤ بالماء، أو الاغتسال لإطفاء نار الغضب. 41

نستنتج من هذا أن الغزالي يبني العلاج النفسي على أمرين، الأول نظري (العلم كما يسميه²)، والثاني تطبيقي (عملي)، وهذا الكلام لا يختلف كثيراً عن ما يُطرح حديثاً، من استخدام للعلاج المعرفي المبني على الاقتناع، والوعي والمعرفة بالمرض، ثم الإرادة والتصميم على التخلص منه³. وبعدها يأتي العلاج العملي أو السلوكي مكماً لذلك، متمثلاً في الجهد الإرادي للعمل على التخلص من المرض، بالممارسة، والجهد الذاتي المبذول.

وهو سبق معرفي ومنهجي يحسب للغزالي دون شك. ويمكن تطبيق هذا العلاج عن طريق جهد ذاتي داخلي. يقوم ب⁴ الشخص نفسه⁵. ويمكن الاستعانة بجهد خارجي، يقوم ب⁶ معالج أو مرشد، خبير بداء القلوب، أو النفوس كما يقول الغزالي.

أساليب علاج أمراض النفس عند الغزالي:

1) العبادات:

العبادات في الإسلام ليست طقوساً مبهمة مغرقة في الرمزية، لا غاية دنيوية لها، وإنما هي أعمال مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالصحة النفسية والجسدية للفرد من جهة، ولها علاقة وثيقة باستقرار المجتمع أخلاقياً واجتماعياً، لهذا أدرك الغزالي مثل غيره من فلاسفة الإسلام، أن العبادات لها وظيفة كبيرة في علاج المشاكل والانحرافات لدى الفرد والمجتمع، فتأمل ما تحقق⁷ الصلاة من طمأنينة، وشعور بالأمن والاستقرار النفسي، زيادة على ما فيها من نظافة للنفس والجسد، وما يحقق⁸ الصيام من صحة للجسد، زيادة على ما تؤدي إليه⁹ الزكاة من تعاون وتكافل اجتماعي، ومع تكافل هذه العبادات وما تدعو إليه¹⁰ من معاملات بين الأفراد يكون السعي نحو مجتمع فاضل، عادل تنتفي فيه¹¹، أو تقل الآفات الاجتماعية، لأن صلاح الأفراد من صلاح المجتمع. والمتأمل لكثير من الآيات والأحاديث يتأكد من ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون. ﴾¹²

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّهم بها. ﴾¹³

وقول النبي (ص): (من لم يدع قول الزور والعمل ب¹⁴، فليس لله حاجة في أن يدع طعاماً¹⁵

وشراباً¹⁶). 44

ولو تتبعنا نموذجاً يقدمه¹⁷ الغزالي للعبادات، نتيين¹⁸ من¹⁹ التحليل النفسي الدقيق للنفس البشرية الذي يقدمه²⁰ الغزالي، ونظرت²¹ إلى العبادة على أنها أساس تحقيق الاتصال بالله، لتصل النفس إلى التوازن والاستقرار النفسي والطمأنينة. إذ يرى مثلاً أن روح الصلاة في حضور القلب،

أما «إذا كان القلب غافلا..ولسانه يتحرك بحكم العادة، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيط القلب وتجديد ذكر الله عز وجل، ورسوخ عقد الإيمان.» 45

ومع معرفة الغزالي للطبيعة البشرية فهو يدرك أن الخشوع التام يبدو مستحيلا، إذ لا يمكن التخلص من مشاغل الدنيا، وأهواء النفس، إلا أن الغزالي يجتهد في فهم أغوار النفس البشرية ليحدد الأسباب التي تشغل النفس عن الخشوع، ملتزما بمنهج العلمي يبين لنا في نفس الوقت الدواء وكيفية علاج شرود الذهن، ودفع المثيرات، وهنا تبرز عبقرية الغزالي في تحليل النفس، إذ يقول: «وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا، أو أمرا في ذاتنا باطنا. أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم (أي الفكر) حتى يتبعه ويتصرف فيه، تنجر الفكرة إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سببا للإفتكار، ثم يصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض، ومن قويت نيتنا، وعلت هممتنا لم يلهها ما جرى على حواسنا، ولكن الضعيف فلا بد وأن يتفرق بفكره.» 46

وفي هذا التحليل والوصف يحدد (الغزالي) طبيعة العوامل الذاتية والموضوعية التي تؤثر على المصلي وحواسه، فتشغله عن الخشوع، وتشتت انتباهه البصري والسمعي. ولا يكتفي بعرض المثيرات المختلفة بل يصف أيضا الحلول، «وعلاج قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره، أو يصلي في بيت مظلم، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلواته، حتى لا تتسع مسافة بصره. ويحترز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة..وأما الأسباب الباطنة فهي أشد، ويعيننا على ذلك أن يستعد قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة، وخطر المقام بين يدي الله سبحانه، وهو المطمع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهيمه، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره.» 47

وكما لاحظنا يقترح الحلول لإبعاد تأثير المثيرات الخارجية، ثم تحرير النفس من الخواطر الداخلية، لتحقيق التركيز وحضور القلب في الصلاة، ويبرز في تحليله إدراك جيد للعوامل المختلفة التي تؤثر في النفس البشرية.

(2) الاعتدال والتوازن:

وقد تنبأ الغزالي وغيره من فلاسفة الإسلام كابن سينا إلى ذلك، حيث يقول الغزالي: «إن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض... وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.» 48

ويؤكد الغزالي على مبدأ الاعتدال والتوازن على المستويين الجسدي والنفسي، فإذا كنا لاحظنا ذلك سابقا على الجسم، فهو يرى أيضا ضرورة التوازن والاعتدال بين قوى النفس، وذلك بتحكيم العقل، كما أن لا يؤمن بقمع ومحو الغريزة والانفعالات، والعاطفة، وإنما يعتبرها جزءا ضروريا من الإنسان، وإنما يجب تنظيم ذلك النشاط النفسي «فإذ رأيت واحدا منهم قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب، فعليك بالمجاهدة ولا تقصد قتلها، لأن المملكة لا تستقر، إلا بهما فإذا فعلت ذلك كنت سعيدا، وأديت حق النعمة..والا كنت شقيا.» 49

كما أن الاعتدال والرجوع إلى الوسطية مهم في حدوث الشفاء والتوازن للنفس، في مواجهة الحالات النفسية كالخوف المفرط، واليأس والقنوط وبالتالي الاكتئاب، ويكون التعامل حسب (الغزالي) بحسب الحالة، إذ «الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية، وكلف نفسه ما لا يطيق، وضيّق العيش على نفسه بالكلية، فتكسر سورة إسراف في الخوف، بذكر أسباب الرجاء، ليعود إلى الاعتدال، وكذلك المصير على الذنوب المشتبهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما للذنوب.» 50

ويظهر هنا جليا أسلوب العلاج المبني على الإرشاد والإقناع، واستعادة الثقة إلى المريض حتى يسترجع توازنه النفسي، وبالتالي يحدث العلاج، وهو نفس الأسلوب المعتمد في المدارس الحديثة.

3) تربية الغرائز والتحكم فيها:

ويؤكد أن الانفعالات والعواطف جزء من الحياة النفسية، إذ لا يمكن إزالتها بالكلية وإنما تربيتها والتحكم فيها، إذ يقول: «اعلم أن ظن ظانون أن يتصور محو الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوج وإياه تقصد، وظن آخرون أن أصل لا يقبل العلاج، وهذا رأي من يظن أن الخلق كالخلق، وكلاهما لا يقبل التغيير، وكلا الرأيين ضعيف بل الحق في ما نذكره، وهو أن ما بقي الإنسان يحب شيئا ويكره شيئا فلا يخلو من الغيظ والغضب، وما دام يوافق شيء ويخالفه آخر، فلا بد من أن يحب ما يوافق، ويكره ما يخالف، والغضب يتبع ذلك.» 51

ولما كانت تلك الانفعالات جزءا حيا من الإنسان، فما عليه إلا أن يتحكم فيها ويوجهها توجيها صحيحا ما دام مستحيل محوها بالكلية كما يقول الغزالي: «فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب. ولكن لكي يقدر على أن لا يطبع الغضب، ولا يستعمل في الظاهر، إلا على حد يستحب الشرع ويستحسن العقل. وذلك ممكن بالمجاهدة، وتكلف الحلم، والاحتمال مدة يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا. فأما قمع أصل الغيظ من القلب، فذلك ليس مقتضى الطبع، وهو غير ممكن، نعم يمكن كسر سورت، وتضعيف.» 52

«وكذلك الشهوة والغضب ينبغي أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعلنا شيئاً إلا بأمره، فإن

فعل ذلك صح لـ حسن الخلق، وهي صفات الملائكة، وهي بذر السعادة.» 53

4) العلاج العملي عند الغزالي:

ويكمن ذلك في وجهين متكاملين، ترك وفعل، أي تجنب الرذائل، والتخلي عنها، واكتساب

الفضائل والتحلي بها.

العلاج بترك الرذائل: وسماها الغزالي المهلكات، وهي الحسد والكذب، والرياء والتكبر،

وغيرها من الموبقات. وهي الصفات السيئة التي تتصف بها النفس.

العلاج باكتساب الفضائل: وهي كثيرة وتشكل أساس العلاج عند الغزالي وقد أفرد لها

الغزالي فصولا في الإحياء، سماه ريع المنجيات ويتمثل في التزام الصبر والعفة والصدق، والأمانة،

وغيرها من الفضائل، أو الصفات الحسنات.

إذ يستخدم مع الجميع طريق الوعظ والإرشاد، لترك الرذائل واكتساب الفضائل، لكن

يكون ذلك حسب حالة كل شخص، أي بالموازنة بين الرجاء والخوف، «أما الذي غلب عليه

الخوف، حتى هجر الدنيا بالكلية، وكلف نفسه ما لا تطيق، وضيّق العيش على نفسه بالكلية،

فتكسر سورة إسراف في الخوف، بذكر أسباب الرجاء، ليعود إلى الاعتدال، كذلك المصر على

الذنوب المشتهي للتوبة، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس، استعظاما لذنوب التي سبقت، يعالج

أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. 54»

5) توازن الشخصية عند الغزالي:

يستخدم (الغزالي) مصطلحا مهما للدلالة على حصول التوازن النفسي، وتوافق

الشخصية مع محيطها، وهو مصطلح الرضا، الذي صار مستخدما أيضا في علم النفس الحديث.

إذ الرضا عند (الغزالي) هو ثمرة المحبة، أي محبة العبد لخالفه، وطاعته له، ويتصور

الرضا من وجهين: الوجد الأول: يبطل الإحساس بالألم، فلا يحس الشخص بالألم، ويتقبل الإنسان

الأفعال رغم ضررها ويتزود بالصبر، مثال الرجل المحارب في الغضب أو الخوف يتعرض للجراح ولا

يحس بالألم. 55

الوجد الثاني: «أن يحس الألم ويدركه، ولكن يكون راضيا به، راغبا فيه بعقله، وإن كان

كارها بطبعه، مثلا من يسافر في طلب الرب، يدرك مشقة السفر، ولكن حبا لثمرة سفره طيب

عنده مشقة السفر، وجعل راضيا بها مهما أصابها.» 56

والرضا عند الغزالي هو الحالة التي يتم فيها التغلب على الشهوات والغرائز، بعد صراع بين

باعث الهوى وباعث الأخلاق. وتحلي الإنسان في هذه المرحلة بالصبر والمواظبة على رياضة النفس

على تجنب الرذائل، وبالتالي تتحقق حرية الإنسان وقيادته لنفسه²، وذلك حين « يملك العبد شهوته² وغضبه² فينقادان لباعث الدين.. إذ به² يصير صاحب² حرا.» 57

أما إذا حدث العكس ولم يفلح في التحكم في نفسه²، واستولت عليه غرائزه. فإننا² «يصير عبدا.. مسخرا مثل الهيمة، مملوكا يستجره زمام الشهوة، أخذنا بمختنق² إلى حيث يريد ويهوى.» 58

فالغزالي أدرك منذ ذلك الوقت منهج العلاج المتكامل المبني على الجمع بين العلاج الذاتي الذي يقوم به الفرد نفسه²، والعلاج الموضوعي الذي يقوم به ملاحظ خارجي، كالمعلم أو المرشد، حيث يقول مثلا: « الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل، والجميل والقبيل². بل بقي كما فطر عليه² خاليا عن جميع الاعتقادات... فهذا سريع القبول للعلاج جدا، فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه² يحمل² على المجاهدة، فيُحسِّن خُلُق² في أقرب في أقرب زمان.» 59 هو ما يؤكد علي ادراك الغزالي لطرق العلاج النفسي، أي المنهج التعاطفي، الذي يجمع بين المنهج الذاتي، والمنهج الموضوعي، بين الاستبطان والمنهج السلوكي، بين العمل الذاتي والملاحظة الداخلية، والعمل الموضوعي والملاحظة الخارجية، وهو منهج المدارس الحديثة في العلاج النفسي.

وفي الخلاصة:

يمكننا أن نعتبر أن الغزالي هو مؤسس علم النفس الإسلامي، وأننا² سبق غيره في تأسيس هذا العلم موضوعا ومنهجا، وقد بنينا هذا الحكم على الأدلة التي سقناها من مصادره الأصلية، وقد أخذنا قليلا من كثير تميّز به² الغزالي في موضوعات النفس. والتي بدا لنا أنها جديرة بدراسة أكثر عمقا وتوسعا لأصالتها. كما يبرز من خلال النماذج المختصرة التي قدمناها، أن الغزالي قد أدرك كثير من مشكلات وأمراض النفس، ووصفها بطريقة موضوعية، تدل على اعتماده الملاحظة، واستفادته² من التجربة، وتمكّنه² من المنهج. إضافة إلى أن الغزالي تنبّ² إلى دور العامل الروحي في نجاح العلاج النفسي، دون أن يغفل ما للعوامل النفسية، والجسدية والاجتماعية من تأثير. مع إشارات² العلمية الدقيقة التي نراه سبق بها كثير من علماء النفس والتربية المعاصرين، رغم اختلاف الزمان والظروف والإمكانات بين عصرنا وعصره.

الآلات والمراجع:

(1) راجع كالفن هال: أصول علم النفس الفرويدية، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية، بيروت 1970. ص

45.

(2) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 3، عالم الكتب، دمشق، بدون تاريخ، ص 4.

(3) الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط5، بيروت،

1983، ص 15، 16.

- (4) قرآن كريم: الفجر 27، 28.
- (5) قرآن كريم: القيامة 1، 2.
- (6) قرآن كريم: يوسف 53.
- (7) الغزالي: الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 355.
- (8) المصدر نفسا، ج 4، ص 55.
- (9) الغزالي: الإحياء، ج 3، مصدر مذكور سابقا، ص 49.
- (10) المصدر نفسا، الصفحة نفسها.
- (11) المصدر نفسا، ص 69.
- (12) المصدر نفسا، الصفحة نفسها.
- (13) المصدر نفسا، ص 57.
- (14) الغزالي: ميزان العمل، تحقيق وتقديم: سليمان دنيا، دار المعارف، ط 1، القاهرة، 1964، ص 314.
- (15) الغزالي: الإحياء، ج 3، مصدر مذكور سابقا، ص 72، 73.
- (16) المصدر نفسا، ص 75.
- * زيادة على الحواس الخمس، البطن والفرج.
- (17) المصدر نفسا، ج 3، ص 74.
- (18) المصدر نفسا، ص 75.
- (19) المصدر نفسا، ص 83.
- (20) المصدر نفسا، ص 87.
- (21) المصدر نفسا، ص 77.
- (22) المصدر نفسا، ص 63.
- (23) راجع المصدر نفسا، ص 85.
- (24) المصدر نفسا، ص 87.
- (25) المصدر نفسا، ص 86.
- (26) المصدر نفسا، الصفحة نفسها.
- (27) المصدر نفسا، الصفحة نفسها.
- (28) راجع المصدر نفسا، ص 87.
- (29) الغزالي: كيمياء السعادة، المكتبة العصرية، ط 1، صيدا-بيروت، 2003، ص 107، 108.
- (30) الغزالي: جواهر القرآن ودرره، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق العربية، ط 5، بيروت، 1983، ص 28، 29.
- (31) راجع المصدر نفسا، ص 31.
- (32) المصدر نفسا، ص 29.
- (33) المصدر نفسا، الصفحة نفسها.
- (34) راجع علي زيعور: مذاهب علم النفس، دار الأندلس، ط 5، بيروت، 1984، ص 232.
- (35) راجع الغزالي: الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 45.

- ⁽³⁶⁾ المصدر نفسه، ج 3، ص 149.
- ⁽³⁷⁾ المصدر نفسه، ج 3، ص 145.
- ⁽³⁸⁾ المصدر نفسه، ص 145، 146.
- ⁽³⁹⁾ المصدر نفسه، ص 146.
- ⁽⁴⁰⁾ المصدر نفسه، ص 150.
- ⁽⁴¹⁾ راجع المصدر نفسه، ص 150، 151.
- ⁽⁴²⁾ قرآن كريم: العنكبوت 45.
- ⁽⁴³⁾ قرآن كريم: التوبة 103.
- ⁽⁴⁴⁾ حديث نبوي صحيح: رواه البخاري، كتاب الصوم.
- ⁽⁴⁵⁾ الغزالي: الإحياء، مصدر مذكور سابقا، ج 1، ص 143.
- ⁽⁴⁶⁾ المصدر نفسه، ج 1، ص 146.
- ⁽⁴⁷⁾ المصدر نفسه، ج 1، ص 146، 147.
- ⁽⁴⁸⁾ المصدر نفسه، ج 3، ص 52.
- ⁽⁴⁹⁾ الغزالي: كيمياء السعادة: المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، صيدا-بيروت، 2003، ص 104.
- ⁽⁵⁰⁾ الغزالي: الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 45.
- ⁽⁵¹⁾ المصدر نفسه، ج 3، ص 146.
- ⁽⁵²⁾ المصدر نفسه، ص 147.
- ⁽⁵³⁾ الغزالي: كيمياء السعادة، مصدر مذكور سابقا، ص 106.
- ⁽⁵⁴⁾ الغزالي: الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 45، 46.
- ⁽⁵⁵⁾ راجع الإحياء، ج 4، مصدر مذكور سابقا، ص 297.
- ⁽⁵⁶⁾ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁽⁵⁷⁾ المصدر نفسه، ص 68.
- ⁽⁵⁸⁾ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁽⁵⁹⁾ المصدر نفسه، ج 3، ص 49.